بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله حمـــدا كثـــيرا طيبا مباركا فيـــه، كما يحب ربنا ويرضـــى، وصـــلى الله وســـلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

أما بعـــد...

فلم يكن في الحسـبان، أو تتصـور الأذهـان أن ينقلب بعض الشـيوخ والعلماء على (**بنية العلماء**) و(**تاج الفضلاء**) و (**جمال النبغاء**) حـــدائق المتـــون، وأفنـــان النصـــوص، ورفـــارف العيـــون، ومزامر الأصول!! التي بها حيازة القلاع، وامتلاك القصـور، وخطف الأبصـار، والسيطرة على الأفئدة والنفوس...

والتي مجدها لا يقـاوم بمجـد، وعُـدتها أفخر العُـدَد، وذخيرتها الغالية النفيسة.. فلا يدانيها شرف، أو يجاريها محل، أو تترفع عليها مكانة!!

إنها المكانة العالية، والمنزلة السامية، التي لاتزال تسمو وتســمو، حــتى تــنزل أصـحابها منــازل العلمــاء الكبــار، والحفظة المتقنين ، والجهابذة الراسخين.

وهل يتم رسوخ بلا متون، أو تحصل صلابة بلا تأسيس ؟!!

درج الناس عليها كـابراً عن كـابر، وتلقاها الجيل عن الجيـل، وقضى بها الأفاضل عن الأفاضـــل، ولم تـــزل هي الطريقة المحمـــودة، والمسلك الواضح المرصوص، والسـبيل الـبين القـويم (**وعلى الله قصد السبيل، ومنها جـائر**) حـتى أطلق بعض الفضـلاء المقولة المشهورة، والحكمة المزيونة، والجملة المعسولة:

(**من حفظ المتون حاز الفنون**)

فأي متون تلك، هي المقصودة ؟!

وأي منهجٍ سهلٍ للعلم مستبين ؟!

وأي طريقة عليا مهدية ..؟ يبلغ بها التلميذ مبـالغ الرجـال المتقـنين، ويعلو معالي الهداة النابهين، من يتنفسـون علمـاً، ويمزحـون فقهـاً، وينشدون حكما، ويفيضون عسلاً ودراً.

إنَّ العجب لا ينقضي من هـؤلاء الشـيوخ الـذين ارتجت الـدنيا من تخبطاتهم، وحزنت من تراجعاتهم !!.

فمن وضع الفتوى في غير محلها، إلى الدنو من المغنين والعصـاة، ومـرورا بالتخبط المحـير، ثم انتهـاء إلى نقد

حفظ المتون الموسومة (بالمهزلة). كلمة شديده تشمئز منها الأنفس، وتضيق الأرواح ! وتزيدك ألماً أن تصدر من عالم فاضل، وشيخ أديب، متوج بأنوار الحكمة والبيان.. وهو من تربى على تلكم المتون، وبات زمناً طويلاً يشرحها ويحللها، ويفك أسرارها، بل ويفجر معانيها..

ويتفاقم الألم، عندما يُصاغُ ذلك المقال (التوهيني والتوبيخي) على صورة السخرية البالغة، والتهكم اللاذع بعبارات .. . لو غيرك قالها ياشيخ ..!!

لو جاهلاً فاه به ... !

لو ليبرالياً تندربها...!

لو غير مختص صدع بها ... !

لو منغلقاً نطق بها...!

كيف يقال في حق المنهج العلمي الميمون (كلمة سقيمة) و (مواد أضافوها كعلم الآثار والأزياء، وفن زراعة البقدونس) ؟!!

و (جمع الحطب وتكسيره) (جعلت الجيل في حيص بيص) (أسقمت العقل) وصار العالم (كالجرادة الصفراء).!!!

وحقيقة، أقول : إنني لم أستطع دفع الاندهاش، والصدمة التي تسيطر علي !!

هل هذا كلام علمي ؟!

أم كلام صحفي ؟! وهل هو منطق عقلي رزين، أم تخرصات ظنية اعتدنا عليها ؟!

وهل الأليق، يقولها العلماء أم الجرائديون المشاغبون ؟!

ثم ما علاقة صحف سياسية مهترئة بمناهج العلماء التعليمية، ونقدها وفحصها وتقويمها ؟!

ومتى كان الإعلام الاستبدادي الهزيل، محلاً لنقاش مثل تلك القضايا العلمية الصرفة ؟

ولكن الخلطة عذاب، والصاحب ساحب، والطيور على أشكالها تقع، كما يقال. !!

... ماحدث .. بكل أسف، خطأ في الرؤية، خطأ في التوقيت، خطأ في المحل !!

وإليكم البيان ..

أما خطأ الرؤية، فهو لم يعين متوناً محددة، بل عمَّم الكلام، وخلط عباس في دباس، لأن بعض هذه المتون مشتملة على نصوص وأدلة

شــرعية أو قواعد كــبرى مستخلصة من الكتــاب والســنة، وضــخم هفوات المتون والاعتماد عليها، واعتبر المتون صارفة عن القرآن... ومن قال ذلك؟!

أم أنه الانقلاب على المنهج، والاغــترار بعبث الصــحافة، وضــجيج القنــوات الفاشــلة، الــتي تتــاجر بــالأخلاق، والطعن في الــتراث، والموروثات الحقيقية،علهم يحققـون (المنظمة العربية الحديثـة) أو (الجامعة العصرية المتحضرة)!!

ورغم تجـاوزهم البضع عشـرة سـنة، فلم يقـدموا رقيـاً فكريـاً، أو يصــنعوا منجــزات إعلامية حضــارية، نفخر بهــا.. بل أســهموا في مراكمة العبث الفكري، والانفراط الأخلاقي، وأسسـوا الاسـتراتيجية للإفساد، وبنية التخلف كما يقول الأستاذ البليهي !!!

ثم بعد ذلك يــأتي بعض هــؤلاء المشــيخة الأعــزاء على قلوبنـا، يطـاوعهم في حملاتهم وينجـرف في سـياقاتهم بحجة صــناعة الفقيه النحرير المــؤثر، الــذى طبّق علمه الآفاق كالألباني وابن سعدي.. رحمهما الله

ونسي أن الشــيخ الألبــاني، لم يعــترف به جل أهل بلادكم (كفقيه متمكن) بل عرفتمــوه محــدثاً، فحســب! ولــولا كتبه الــتى شــقت أسواقكم، وثناء الشيخ ابن باز رحمه الله عليه، لهجرتموه، ونبزتموه كما صنعتم في آخرين !!

والسؤال هنا . ما ثمرة حفظ المتون ؟!

وهل يتوقع معها صناعة العقول على كل حال ؟!

وأين نحن من الأئمة الحفاظ، والأئمة الأفهام ؟!

وأذكر هنا إماماً جبلاً كبيراً في الحديث سليمان بن مهـران الأعمش (147هــ) عنــدما ســئل في مســألة حيض لم يهتد إليهــا.. فــذهب السـائل إلى الفقيه الأكـبر أبي حنيفة النعمـان رحمه الله (150هــ) فأجابه على الفــــور، فقــــال الأعمش كلمته الجميلة الشــــهيرة **(يامعشر الفقهاء أنتم الأطباء، ونحن الصيادلة).**

فالفضــــاء العلمي المرتكز على حفظ المتــــون، يخــــرج الحفــــاظ الراسـخين، ويصـنع الفقهـاء الوعـاة، ويـأتي بالعـالم المـرِن والآخر الشديد، و الثالث المستشرف والرابع المبدع والمبتكر.

والاستعداد النفسي، وطبيعة الأرواح تلعب دوراً بارزاً في ذلك.

مع أنهم جميعاً، رضعوا من معين واحد !! فما السبب ؟!

الســـبب .. **ليس الاعتمـــاد على المتـــون، كما توهمه ذلك الشـــيخ الجليـــل، وهو المـــتربي على أبجـــدياتها.. لكنها أسباب مختلفة، منها** :
1) القدرات الذهنية، التي يحملها العالم أو الفقيه.
2) آليات البحث والفهم، وطرق الاستدلال المتناولة.
3) التربية العلمية والأدبية المصاحبة لعملية التدريس، والتي تضـفي على بعض المتـــون العلمية جلبـــاب القداســـة، وتحـــرَّم المخالفـــة، والخروج على المذهب !!
4) سطحية التفكير، وتعطيل مهام الذهن في التأمل، والنقد، وعـدم العناية بمناهج التفكير العلمي، وتطبيقات الأصوليين التي هي مفتاح الفهم والتمكن، والوصول إلى المقاصد والغايات.
وهي الـتي حازها الشـيخ العلامة المفكر الأصـولي محمد الأمين الشـــنقيطي، حيث جمع المنقـــول والمعقـــول، واسـتطاع بذكائه إدخـال المنطق إلى بلاد الحـرمين وقد كان تدريسه محرماً ومذموماً، ولم يزل الناس يستفيدون من كتبه، وأشهرها (أضواء البيان).
وهو الذي تجاهله الشيخ عائض، هـداه اللـه، في (المقـال التوهيـنى) العجيب.
حيث لما أتى الرياض، ودرس بعض العلماء، ذكر المنطق، فاستهجن ذلك بعض الناس.. وقالوا لا تذكر مثل ذلك.. ؟!
هنا لا يحبـون ذكـره، ويذمونـه، فصـنف مذكرته الأصـولية، الـتي هي عبـارة عن منطقٍ صـرف، لتعليم الطلاب آليـات التفكـير، وطرائق البحث والاستدلال وسماها **(أدب البحث والمناظرة).** وهي حيلة لطيفة تدل على فطنته رحمه الله.
ثم إنه في كل بلد يمتلئ الأعلام، وقد لا يشـــــتهر منهم إلا القلـــــة، والسـبب ظـروف معينة كالسـفر، أوالظهـور الإعلامي، والمصـنفات المتينة، والزيارات العلمية، ولقاءات المجـامع... وقد تحـول أسـباب كثـــيرة دون ذلك منها التباعد المكـــاني، والفقر وشـــظف العيش، وانتشار المفاهيم المغلوطة، والعزلة بين الأقاليم والدول..
ولا يمكن لأحد أن يتجاهل العزلة الـــتي فرضـــها الاســـتعمار بين المغرب الإسلامي والمشرق.. بحيث أصـبحنا لا نسـمع بعلمـائهم، ما لم يلتقوا بنا، أو تصلنا مؤلفاتهم الرصينة، وكم أنجبت تلك الديار من علماء أجلة، حُرمنا علمهم والتواصل معهم.؟!!

ولـــولا ما امتن الله به على هــذه البلاد من ثــراء نفطي زاخــر، لما رأيت مصـــنفات ابن تيمية وابن القيم وأئمة الـــدعوة بالطبعـــات الفاخرة، والخطوط الملونة في كل مكـان، ولكنها نِعٌم يقسـمها الله تعالى .

وإذا كنا نلـوم بعض الـدول في تركيزها المتـني الصِـرف، على الحفظ، يحق لهم ولأمثالهم لومنا في الآتي :

1) الاعتماد النصي الصرف، وتضييق منـاحي الفكـرة والاسـتنباط أو الوعي المقاصدي.

2) تضخيم مفهوم البدعة، وطرده في شتى الحالات.

3) التشدد في التطبيقات الشرعية وأخذ الناس بـالعزائم الصـارمة، وتجاهل مسـاحة الـرخص الشـرعية حـتى اشـتهر قـولهم : (لا تكن حنبلياً).!!

وقــولهم : (لا نريد صــوفية تشــطح، ولا ســلفية تنطح، بل وســطية تنصح وتصفح).

4) عدم الانفتاح على بعض المذاهب الفقهية الأخرى، كأئمة الحنفية ومحققي المالكيــــة، فلا نجد لكتب، مثل المبســـــوط للسرخسي والـذخيرة، والفـروق للقـرافي أيضـا، وبداية المجتهـد، ورد المحتـار، وأشباهها ذكر في أدبياتكم العلمية..

ولولا أن ابن عبد البر المالكي، والنووي الشافعي لهما تضلع حديثي، لما ارتضــيتهموهما بســبب المباينة المذهبيــة، ولنــدرك أن لكل بلد طرائقهم في العلم والطلب، وتربية التلاميذ، كما قال شيخ الإســلام ابن تيمية في الوصــــية الصــــغرى **(هـــذا بـــاب واسع يختلف بـــاختلاف نشء الإنســـان في البلاد، فقد يتيسر له في بعض البلاد من العلم أو من طريقه ومذهبه فيه ما لا يتيسر له في بلد آخر..)**

ولو نقبنا أكثر لظفر المخالف بأشياء كثيرة، ولكنه الســتر والتجــاوز، واحتمال طرائق الناس وعاداتهم.

والزبــدة المستخلصة هو التطــوير والتجديــد، وتقــديم البـــدائل، وليس الطمس والإلغـــاء أو محاولة التســـفيه والسخرية (لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ).

ويكفي الشناقطة فخراً حفظهم للغة العربية، وتمكنهم العميق منها، ومن أصولها ومناهجها، فضـلاً عن العلـوم الأخـرى، جـزاهم الله عن الإسلام خير الجزاء، وأعلا مكانتهم.

جمالَ ذى الأرض كانوا في الحياة وهم بعد الممات جمال الكتْب والسيرِ

لقد طال بي الكلام ، واندفع القلم يكتب ويسترسل، وأفضل نقــاش بعض الأفكار المهمة في المقال التوهيني، في الفقرات اللاحقة.

اللهم منَّ علينا بحسن القصد، وصحة الفهم. (رَّبَّنَا عَلَيْــكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ).

أبو يـــزن غفر الله له
29/11/1431 هـ
6/11/2010 م

نص مقال

الشيخ / عائض غفر الله لنا وله

" مهزلة حفظ المتون. .. .". والمنشور في جريدة " الشرق الأوسط " ... بتاريخ الثلاثاء 4 / 11 / 1431 هـ ـ 12 / 10 / 2010- م

كان الصحابة والقرون الثلاثة الأولى المفضلة عاكفين على الكتاب والسنّة حفظا وتدبرا ، فلم يكن عندهم متون أخرى في النحو أو البلاغة أو العقيدة أو المصطلح أو الفرائض ، ولم يكن أئمة الإسلام كالثوري وأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والأوزاعي وغيرهم يحفظون إلا الكتاب والسنّة .

ثم جاء عصر الضعف العلمي والتقليد وفتور الهمم وبرود العزائم ، فصنّفوا لنا متونا شغلتنا عن القرآن والسنّة ، وقالوا كلمة سقيمة : " من حفظ المتون حاز الفنون " ، فقدّموا لنا أكثر من مائة متن في أنواع العلوم ، بل صار لكل مذهب متون خاصة بأتباعه ، فيحفظ الطالب متنا في الفقه ، وألفية ابن مالك في النحو ، وملحمة الإعراب للحريري ، ولمعة الاعتقاد ، ومتن الطحاوية ، وألفية السيوطي ، وألفية العراقي لمصطلح الحديث ، وزاد المستقنع ، أو مختصر خليل ، أو التقريب لأبي شجاع ، أو كتاب القدوري الحنفي ، مع متن في البلاغة ، ومتن في أصول الفقه ، ومتن في الفرائض .

غير المواد التي أضافوها ، كعلم الآثار، والجغرافيا ، وعلم الأزياء ، وفن زراعة البقدونس ، والتخصص في جمع الحطب وتكسيره ، والتفقه في سيرة السلاجقة ، ودراسة كيف يلبس الآشوريون ، وموعد الطعام عند ملكة تدمر .

كل هذه المتون والفنون جعلت الجيل في " حيص بيص " فشغلت الذهن ، وأسقمت العقل ، وشتتت الانتباه ، حتى إني رأيت بعض المشايخ في بعض الدول التي زرناها يحفظ عشرات المتون ويعيدها ويكررها ليل نهار حتى صار نحيفا

نحيلا كالجرادة الصفراء ، فأصبح كآلة التسجيل ، فقط يحفظ ويكرر ، وشُغِل عن الكتاب والسنّة وعن التفقه في الآيات والأحاديث ، ولهذا انظر ـ مع احترامي للشناقطة ـ ما هي الحصيلة من هذا الحفظ المذهل المدهش للمتون ؟ فقط جلسوا يكررونها على الطلاب ولم يقدموا للعالم الإسلامي فقها للنصوص أو مشروعا تجديديا للدين ، حتى إنهم قالوا عن موريتانيا : إنها بلد ألف حافظ. وأعتقد أن الواحد منهم يحفظ أضعاف ما يحفظ الشيخ الألباني والشيخ عبد الرحمن بن سعدي ، ولكن انظر البون الشاسع بين فهم هذين الإمامين وكتبهما ومدارسهما وبين عطاء أولئك الفضلاء ونتاجهم.

ليس بصحيح قولهم : " من حفظ المتون حاز الفنون " ، بل الصحيح : " من حفظ الكتاب والسنّة هُدي إلى الجنّة " ، وبالله عليكم متى يتفرغ طالب العلم لفهم الكتاب والسنّة إذا كان مشغولا بحفظ وتكرار زاد المستقنع وألفية ابن مالك وألفية العراقي وألفية السيوطي والرحبية في الفرائض ولمعة الاعتقاد ومتن الطحاوية وجمع الجوامع في أصول الفقه والسبل السوية في العقيدة ؟ .
الحقيقة أنه لن يجد وقتا لمدارسة كتاب الله وسنّة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولو كانت هذه الطريقة المتأخرة للتعليم صحيحة لكان سبقنا إليها السلف الصالح كالخلفاء الراشدين وابن عباس وأبي هريرة ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب والزهري وابن المسيب والحسن البصري ، لكنهم لم يحفظوا متنا واحدا غير الكتاب والسنّة ، وسبب من الأسباب المعيقة للفهم كما ذكر ابن خلدون هي : المختصرات العلمية وهذه المتون التي صدت الطلاب عن التشاغل بالكتاب والسنّة .
آمل أن نعيد التعليم الشرعي إلى عهد القرون المفضلة ، ونحذو حذو السلف الصالح في دراسة الشريعة ، أما تحويل

الطالب إلى آلة تسجيل ليحفظ كلام الناس وينسى الوحي المقدس المنزل فهذا عوج في الرأي وغبش في البصيرة وقدح في الإدراك .
وقل لي بربك لو أن ابن المبارك أو مالكا أو الشافعي وغيرهم من أعلام الأمة تشاغلوا بهذه المتون ، أتراهم يتركون لنا فهما صحيحا وفقها دقيقا لكتاب الله وسنّة رسوله صلى الله عليه وسلم؟ بل صرفوا اهتمامهم للنص المقدس كتابا وسنّة ، وعكفوا قلوبهم على هذا الفيض المبارك والغيث المدرار من الوحي الكريم ، فصاروا أئمة مجددين مصلحين بحق ، فيا أيها المشرفون على العلم الشرعي في مدارسنا وكلياتنا ومساجدنا ممن حشوتم عقول الطلاب بمتون البشر في كل فن وشغلتموهم عن الآيات والأحاديث ، طريقتكم خطأ ، خطأ ، خطأ ، ومنهجكم بالتعليم غلط ، غلط ، غلط . ارجعوا إلى منهج الصدر الأول في طلب العلم الشرعي ، أما العلوم المادية كالطب والهندسة والتكنولوجيا فلها منهج آخر. انتهى

سمات المقال إجمالاً

1- الهجمة الشـديدة على حفـاظ المتـون بلا مسـوغ واضـح، أو نقد محدد بل توقيع العنوان بلفظة حــادة، وفجة لا تليق بأهل العلم .. (مهزلة).

2- الأسلوب الصحفي العصري، الخالي من اللغة العلميــة، المقرونة بالحجج والبراهين. (**قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)**

3- السخرية والتندر بكتاب المتـون وحملة العلـوم، والعـاكفين عليها الأيام تلو الأيام.

4- نقد بلد إسلامي عـربي، تمـيز بالحفظ والدقة والإتقـان، وتـوهين منهجه !!

5- الخلط بين حفظ المتون، وتدبر الكتاب والسنة، وتصور المفارقة بينهما.

6- تجـاوز الحد الأدبي النقـدي في التصـويب، وتشـبيه تلكم المتـون الأصـيلة، الرفيعة الـتي كـان السـلف يتفـاخرون بها بمتهـافت الموضوعات (علم الأزيـاء ، فن زراعة البقـدونس، تخصـيص جمع الحطب وتكسـيره، كيف يلبس الأشـوريون – موعد الطعـام عند ملكة تـدمر...) هل هـذه لغة علمية أم لغة صـحافية ؟! وكيف تقارن مهازل الصحافة بمتون علمية سمت عند أهلها سموا لا حد له، فمثلا مختصر المزني الشافعي، كـان ُيجعل مع العـروس ليلة زفافها لجلالته عنـدهم، كما ذكر الـذهبي في السـير، أهكـذا حق هذه المتون، ومقدار التوقير لها ؟!!

دعاوى باطلة في المقال

اشتمل المقال (التوهيني) على دعاوى لم يذكر الشيخ عليها دليلاً لا من العقل ولا النقل، ولا أيدها برهان صحيح او كلام مقنع رزين..

والدعاوى ما لم يقيموا عليها بيناتٍ أصحابها أدعياءُ

فوددت لو أن الشيخ الكريم يتفضل علينا بنقده الموضوعي، مسوغاً بالحجج العلمية أو الشواهد التاريخية.

1) زعمه أن الصحابة لم يتعلموا متوناً أخرى غير الكتاب والسنة، وتجاهل علم ابن عباس بشعر العرب ولغتها، الذي كان إحدى آليات فهم التفسير للقرآن، وحفظ أبي بكر للشعر وأيام العرب،وكذلك عمر الفاروق وإعجابه بشعر زهير بن أبي سلمى وكذلك عائشة فقيهة النساء على الإطلاق، كانت خبيرة بالشعر والطب، وقد كانت تحفظ نحو خمسة آلاف بيت من الشعر. والظرف التاريخي للصحابة وهم العرب الأقحاح لم يسمح بظهور متون وسيعة كالتي ظهرت بعد عصر التدوين.

2) عدم تفريقه بين المتون الأصلية في العقيدة، ومتون الآلة كالنحو والبلاغة، التي تتعلم لغيرها، بحيث تعين على فهم الكتاب والسنة، وكيف عُرِفَ اللحن في الكلام، وصين القرآن، ووعى العلماء معنى (القرء) في الآية و(فاطر) و(الرقيم).

بل لو أن عالماً تعلم اللغة وعلومها لذاتها لما أنكرنا عليه، لأنها لغة القرآن وأشرف اللغات، وقضية أمن قومي، وأعجب الألسن وأجملها كما قال تعالى : **(بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ)**

أما متون العقيدة فهي في غالبها أصلية ومشحونة بآيات الكتاب والسنة ويكفي لإدراك ذلك، متن كتاب التوحيد للشيخ (المجدد محمد عبد الوهاب) رحمه الله، ومتن العقيدة الواسطية لشيخ الاسلام ابن تيمية، وقد تربى هو على هذين المتنين.. وهما مشحونان بالآيات والنصوص، وقد كان يوصي بهما في دروسه !!

فما المراد ؟! هل هذا التباس ؟!

أم أنه هناك خطأ آخر ؟! أم تحول منهجي خطير ؟!

3) افتعاله المشكلة بين المتون وحفظ الوحيين، ومحاولة صنع تضاد بينهما، وأن الأول شاغل عن الحفظ والتدبر للقرآن !! وهل حفظ المتون تلك، إلا وسيلة لفهم القرآن أو وعيه وشرحه، ؟ واستنباط منه في الغالب...!

4) ادعاؤه أن أئمة الإسـلام كـالثوري وأبي حنيفة ومالك والشـافعي ... لم يحفظوا إلا الكتاب والسنة !!

وأظن أن التـاريخ العلمي وكتب الـتراجم والفقــه، تكــذب هــذا الادعاء من وجوه :

أ- عـدم حفظ بعضـهم لهـذه المتـون اما لكونها لم تُصـنَّف بعـد، أو لاعتمــادهم الأخذ من الشــيوخ مباشــرة، وغلبة جــانب الرواية الحديثية، عنـدهم، وقد حفظـوا الأسـانيد الـتي هي أسـماء صـماء (آلـة) وليست وحيـاً يتلى ويتعبد بـه.!! وهـذه قصة طويلة تتعلق (بعلم الرجال) ولا يمكن للشيخ تجاهلها !!

ب- اما بالنســبه لأبي حنيفــة، فهو إمــام الأثر والــرأي، واشــتهر بالقيـاس، وكـان مجلسه (برلمانـاً فقهيـاً) يحضـره أكـابر أصـحابه ويتنناقشون عقلاً، واستنباطاً وافتراضاً، وقيد أصحابه ذلك، وصــار في مؤلفات، فحفظوا القرآن وتلكم المســائل والقواعد المذهبية وهو من قال فيه الشافعي.

(النـاس عيـالٌ في الفقه على أبي حنيفـة)، وقد اشـتهر بقلة الآثـار في مذهبه وهي دعـوى مكذبة عند المحققين، لكنـني أوردها هنا لاشتهارها...

جـ- أما مالك رحمه اللـه، فقد صـنف كتابه الشـهير (الموطـأ) وملأه بفتاوى الصحابة والتابعين، وما يُعرف بعمل أهل المدينـة، وتلقـاه النـاس، وحفظـوه، وكـان متنـاً علميـاً، وليس خاصـاً بالأحـاديث المرفوعة وحفظه أكثر أصحابه وتلاميـذه، ومنهم الشـافعي رحمه الله، وفيه قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله.

(**كنا نلعن أصحاب الرأي ويلعنوننا، حتى جـاء الشـافعي فمزج بيننا).**

وهنا نقطة في غاية الأهميــة، وهي وجــود (كتب الــرأي) المتمثلة في فتاوى الصحابة والتابعين، وأكابر الفقهاء ومختارات المـذهب، التي كرهها أحمد وغيره، ومع ذلك فقد اسـتفادوا منهـا، وإن كـان أحمد رفضها ابتداء بقوله **(الحـديث الضـعيف، أحب إلينا من آراء الرجال).**

وهو رحمه الله كـانت له آراء مسـتنده إلى نصـوص، كغـيره من الأئمة الـذين غلب عليهم الـرأي. لا أنهم شُـغلوا بها عن الكتـاب والســـنة، أو خاصـــموا بها الوحـــيين، أو قـــدموها على الأدلة الشرعية.. فهدا أبو حنيفة كان له ستون ختمة في رمضان، ومثله الشـافعي وهو مصـنف كتـاب (الرسـالة) في أصـول الحـديث والفقه، مبنياً على القرآن والسنه ولغة العـرب، وضـعه طلبـاً من أحد أكابر أئمة الحديث، وهو الإمام عبد الرحمن بن مهـدي رحمه الله (198) وهو المـاكث في هـذيل عشـرين سـنة يتعلم شـعرها وأدبهـــا، حـــتى حفظ آلاف الأبيـــات، وقد قـــال العلامة الراوية **الأصـمعي :(صـححت أشـعار الهـذليين على شـاب من قـريش يقـال له محمد بن ادريس**) يعـني الشـافعي رحمه الله .

د- إطلاقه لفظة (ســـقيمة) على المقولة الصـــحيحة المليحة **(من حفظ المتون حاز الفنون).**

نعم حاز الفنون حيازة كاملة، فألفية العـراقي، ضـابطة لمصـطلح الحـــديث، وألفية ابن مالك لقواعد النحـــو، والطحاوية لأصـــول العقيدة، وهي عقيـدة سـلفية مسـتنيرة، وزاد المسـتقنع متن في مذهب أحمد، ومثله متن أبي شجاع رواية في مـذهب الشـافعي، وحافظهما فقيه مبتـدئ بقـول واحـد، يعـني من الطهـارة إلى القضاء والشهادات.

فهـذه أليست فنونـاً مباركة يعتد بهـا، وكلها دائـرة حـول الكتـاب والسنة، وسيطالع الطالب شروحها المهديـة، وحواشـيها الرصـينة ؟! إلا إذا كان الشيخ، قد فهم الفنون شيئاً آخر... من نحو ما مثل به.. الأزياء، وزراعة البقدونس والآثـار، وتكسـير الحطب، واللبس الأشوري !!! إن هذا لشئ عجيب!!

وظلم ذوي القربي أشد مضاضةً على المرء من وقع الحسام المهنَّدِ

هــ- قوله (**المـواد الى أضـافوها**) لم يضف الفقهـاء، ولا صـناع المتــون، هــذا الادعــاء عليهم.. (كعلم الآثــار والجغرافيــا، وعلم الأزياء، وفن زراعة البقدونس، وجمع الحطب... وأنزه الشيخ عــائض من الســخرية المقيتة بعلمــاء أجلة كتبــوا هــذه المتــون، وشُرحت بالمئات وتلقاها طلاب المذاهب بـالقبول والتوقـير، ولم ينـازعوا بها الكتـاب والسـنة، بل إذا ذهبت لشـروحها وحواشـيها، رأيتها ملأى بالأدلة والأحـــاديث مما يـــدل على حسن قصـــدهم، وجميل طبيعتهم، وأنهم كتبوها كالمفاتيح تسهيلاً للطلاب، وتقريباً للعلوم، وليس إسقاماً أو إشغالاً !!.

والعلمُ في حفظ المتون وإنها للطالب الشواف خير فلاحِ

يحلو بها لب الذكي ويهتدي لمعارف الوحيين بالافصاحِ

و- دعوى أنها (لإ سقام العقل) لم أقف ولم أسمع، ولم أطــالع، ولم أرى من نص في كتب التراجم والسير والتواريخ، أن عالماً ســقم من ألفية العـــــراقي، أو أرداه مختصر القـــــدوري، وأورث له الشـــبهات، أو تكـــدر من متن في البلاغـــة، أو حلت به عاهة من متنن الزاد او مختصر خليل أو غيرها من المتون الصحيحة !! لكن اشتهر ذلك عن كتب المنحرفين، كما حصل للإمام النــووي رحمه اللــه، اقتـنى كتـاب القـانون لابن سـينا فأصـيب بنـوع من الكآبة فتخلص منه، كما ذكر الذهبي ذلك في تذكرة الحفاظ.

هـذا على المسـتوى الحسي ، أما على المسـتوى المعنـوي فهي شـقاء العقـل، ورياضة فكـره، وسـبيل تتـوره ونباهتـه، حيث أنها تصـقل الـذهن، وتدربـه، وتورثه الدقة والضـبط، وحب الاسـتفهام والاستزادة.. ومن جربها ذاق حلاوتها، وكيف أنها تدفع بأهليها إلى الجد، والجلَد، وطلب الحواشي والتعليقات. وقد قـال ابو العبـاس بن سريج في مختصر المزني :

لصيقُ فوآدي منذ عشرين حجة وصيقل ذهني والمفرج عن همي

جَموع لأنواع العلوم بأسرها فأخلق به أن لا يفارقه كمي

ز- وصـفه أربـاب الهمم الحفـاظ (**بـالجرادة الصـفراء**) من ديمة التكرار!!! والله هذا أعز وصف وأحسنه وأبهـاه، وليتنا مثل هـؤلاء ؟؟ كالجرادة الصـفراء من شـدة العيش، وحب العلم، والانقطـاع للحفظ لا كغـيرهم من التخمة في غـرف الباطنية على حد تعبـير الشيخ في مرحلته السابقة...

وها هنا يقول الزبيدي :

قلتُ للفقر أين أنت مقيمٌ قال في عمائم الفقهاء ؟!

إنَّ بيني وبينهم لإخاءً وعزيزٌ علي قطع الإخاء !

والجرادة الصفراء، إنما تكـونت ياشـيخ عـائض من دوام التكـرار، وحب المتـون، وشـدة الفقـر، والتعـزز بـالعلم، والزهد في الـدنيا ...وقد قال شاعر شنقيطي اسمه محمد بن حنبل الموريتاني وهو من العلماء الكبار :

لا تسـوءْ بـالعلم ظنا يا فـتى إن سـوء الظن بـالعلم عطبْ

إن ترى العالمِ نضوا مـرملا صـفرُ كـفٍ لم يسـاعده سببْ

وترى الجاهل قد حاز الغنى محرزَ المـأمول من كل أربْ

قد تجوع الأسْـد في آجامها والـذئاب الغبش تعتـام القتبْ

ولعل المطالع الكـريم، يطـالع كتـاب (الصـفحات) للشـيخ أبي غـدة رحمه اللـه، ليجد مئـات من (الجـرادة الصـفراء) الـتي تأكل

وتشرب العلم، وتستعف عن الدنيا وزهراتها، قد أخلصـهم البـاري بخالصة ذكرى الدار...

وقوت الروح أرواح المعاني وليس بأن طعمت ولا شربتا

وقد قال النضر بن شُميل رحمه الله (**لا يصير العالم عالمــاً، حتى يجوع وينسى جوعه)** ووددت لو أن باحثا يسـلخ شـيئا من عمـره، ليسـرد لـك(**الأعلام النبلاء أشباه الجـرادة الصـفراء)** لجاء مصنفا وافيا ضافيا، يذكرك بحياة البؤس والفقر والإملاق، التي كانت تجتاح أكثر علمـاء السـلف، إلى العصـور المتـأخرة، لتصـيرهم ضعافا مهازيل، مدفوعين بالأبواب، ولكن في قلوبهم تقـوى وإيمـان وإشـفاق، يـرجح بالجسـوم السـمينة، والمشـالح الثخينـة، والصـحف المخضــرة البطينــة، نحو ما قــال صــلى الله عليه وســلم في ابن مســعود رضي الله عنـــه، لما ضـــحك النـــاس من هزاله وجرادته الصـــفراء **(أتعجبـــون من دقة ســـاقيه، والله إنهما في الميزان لأثقل من جبل أُحد)** وأعد القـراء الفضـلاء بروعة هـذا المصنف،وظرافتـه، ولو سـنحت الفرصة ، ونشـطت الهمة سـأنبري لتصنيفه...

ويحق للشناقطة أن يردوا عليك بقول القائل :

قالت مسائل سحنون لصاحبها لن تدرك العلم حتى تلعق الصِبراً

لا يدرك العلم بطال ولا كَسِلٌ ولا مَلولٌ ولا من يألفُ البشرا

حــ- اتهـام الحفـاظ بـأنهم آلات تسـجيل، مشـغولون عن الكتـاب والســنِة!! ما مصـــداقية هـــذا الكلام ؟! وأين مجاله على أرض الواقع ؟! ؟! ما عرفنا حفــاظ المتــون إلا أســاتذة في التفســير وعلــوم القــرآن، وشــرح الأحــاديث ، الــتي تــدني من الكتــاب والسنة.!!

وما أجمل أن نحظى بــآلات التســجيل، في زمــان الكمــبيوتر، وانحطاط الهمم، وتدهور العزائم، الذي بات الحفاظ الطلبة فيــه،

معتمدين على الموسوعات، ويعزفـون عن الحفظ والجد السـابق !!

طـــ- ادعــاؤه أن الشــناقطة لم يقــدموا للعــالم الاســلامي فقها للنصــوص، أو مشــروعاً تجديــدياً للــدين.. وكــأنهم آلات تســجيل فقط...!!

وهذه جهالة فادحة بواقع المغرب الإسلامي وأعلامه الكبار، أمثال محمد الأمين الشــنقيطي صــاحب الأضــواء ، وقد تقــدم ذكــره، والآخر شارح النسائي واسمه محمد المختار الجكني الشنقيطي

وشـــــيخنا المتقن العلامة محمد ولد الحسن ددو الشـــــنقيطي ، والشيخ محمد بن أحمد فال، ناظم العلوم، والشيخ العلامة محمد سالم ولد عدود، والشيخ العالم الزاهد محمد المختار الشــنقيطي المــدرس في المســجد النبــوي، وقبلهم صــاحب كــوثر المعــاني الـــدراري الشـــيخ محمد الخضر بن مايـــأبي الشـــنقيطي، دفين المدينة المنورة، وشقيقه صاحب (زاد المسلم) محمد حبيب الله بن مايـــأبي، والشـــيخ المختـــار ابن بونا صـــاحب (الاحمـــرار) المستدركة عل ألفية ابن مالك.

وأما كونهم لم يقـدموا فقهـاً للنصـوص، فهـذه دعـوى عارية عن الـــــــدليل، لأنك لم تطـــــــالع كتبهم ولا شروحاتهم، وربما ينقلب عليك السـؤال.. مـاذا قـدمتم أنتم من الفقه الجديد للنصوص؟!

ولماذا يتهم الحفـاظ جـزاهم الله خـيراً بالتقصـير في الفهم .. ؟! ألأنهم حفظوا وقصرنا! أم نشطوا ورقدنا ؟!

الفهم للنصــوص مســئولية كل العلمــاء في ســائر أقطـــار الأمة (الشام، ومصر، والعراق والجزيرة، والمغـرب وباكسـتان وتركيـا، وأفريقيا السمراء.. وغيرها...)

ويتمحض هذا الفقه الجديد للنصوص والمسـائل المسـتجدة، عـبر المجالس الفقهية، ومجامع الفقه الإسلامي.

وقولك (المشروع التجديـدي) ، مسـئولية الجميع أيضـاً، وأنت من أكثر العلماء حضوراً في الفضـائيات، وأسـفاراً للـدعوة .. فما هو مشروعكم التجديدي أنت وزملاؤك الفضائيون ؟!

لابد أن تفكر بجدية في ذلك !! وأما الشـــناقطة، فـــذرهم في محفوظاتهم، فلا قنـوات يملكـون، ولا قصـور يسـكنون !! يكفيهم عـزاً، جلـدهم العلمي، وبحثهم الفقهي، ونظمهم الـذهبي، الـذين تجاوز العلوم الشرعية إلى العلوم الطبيعية!!

وكوننا لم نطلع على كتبهم، أو نحضر دروسـهم، ونـرى بلادهم، لا نستعجل الحكم عليهم، ونسـفه طـريقتهم، ونطـالبهم بالمشـروع التجديدي!!!

لقد جئت شيئاً فرياً بهذا المسلك !!!

كدعواك كل يدعي صحة العقلِ ومن ذا الذي يدرىَ بما فيه من جهلِ؟!

وتمثيل الشيخ عـائض بالشـيخين، الألبـاني وابن سـعدي، تقـدمت الإشـارة إليـه، وأن الألبـاني غـير معتد به في الفقه عند جمهـرة النجديين لغلبة الحديث عليـه، وعـدم اطلاعه على أصـول الفقـه، ولكن فاق أقرانه بالتمكن الحديثي رحمه الله..

كـذا يقـول مخـالفوه، ويتهمه بعضـهم بالتسـاهل في التصـحيح، مع أنـني وقد تـربيت على كتبـه، رحمه الله أثبت في مقالـةلي (فقه الشـيخ الألبـاني رحمه اللـه) وأنه أسدّ من كثير من الفقهاء المعاصـرين، واختياراته تنضح بالنقل والعقـل، وليس بجمـود المحـدثين كما يتوهم !! بل هو من فقهاء المحـدثين كأحمد والبخـاري وأبي داود وابن خزيمة، رحم الله الجميع..

وأما الشـيخ ابن سـعدي رحمه الله فهو فقيه مجتهـد، لا يشق له غبار، واسـتغرب الـزج به هنا مع محـدث شـهير، وإهمـال ابن بـاز وابن عثيمين والزرقـا، وسـيد سـابق، وابن عاشـور وغـيرهم رحم الله الجميع.

فالتجـانس هنا مغلـوط ! ثم كيف ُيقـاس أثر العـالم وانتشار انتاجه العلمي؟! هل هو بكـثرة المصـنفات، أم بكثرة التسجيلات، أم بكثرة الشروحات والتحشيات ؟!

أم بإلابداع الفقهي الفريد، الذي لاتـزال الأمة تنتظـره إلى هذه الساعة ؟!

علماء الشناقطة، كغيرهم من الأعلام، لهم تـراث علمي متـدفق، وأضرب بثلاثة أمثلة فقط :

الأول : الشـيخ العلامة الفقيه الكبـير محمد الأمين الشـنقيطي (صاحب الأضواء) الذي يعتبر شـاهداً منـيراً على إمامته العلميـة، وبراعته الفقهية، إضافة إلى مصـنفات أخـرى ومنظومـات هائلـة، نحو مذكرة أصول الفقه وأدب البحث والمناظرة، وكتاب آخر في التفسير أخرجه الشـيخ خالد السـبت بعنـوان (العـذب النمـير من مجالس الشنقيطي في التفسير).

ولم نر في العقـود الأخـيره كتـاب تفسـير جمع بين وعي الآثـار ودلالات اللغة، وتجريد الأحكام، والتمكن البيـاني من هـذا الكتـاب (أضواء البيان) وقد رُزق قبولاً ممدودا، ولازال النـاس يسـتفيدون منه إلى هذه الأيام، ويرون فيه كنوزاً مدفونـة، تحتـاج إلى إبـراز. وهو من نعته المحـدث الألبـاني (شـيخ الإسـلام) ولم يـره لغـيره وفيه قلت :

وذلكَ الأضواء كالجمانِ في عالم التفسير والبيانِ

حرّره بدقه الألفــاظِ ونهمة الأفهام والأيقاظِ

فكان كالفتح بذى الأسفارِ والزاد في السيرة والأخبارِ

الثـاني : الشـيخ العـالم الفاضل محمد المختـار الشـنقيطي، صـاحب الـدروس الوسـيعة والشـروحات الغزيـرة والتعليقـات المفيـدة، الأسـتاذ المتفنن، والواعظ المتمكن، لله دره من فقيه واعظ ،وشيخ بارع فاهم.

شـرح عمـدة الأحكـام وكتـاب التوحيد وكتبـاً أخـرى، لو جُـردت مؤلفات لرأيت حسنها وجمال تناسقها.

الثالث : الشيخ محمد الحسن ولد الددو شارح البخاري، واللمـع، والعمـــدة والإبانة والألفيـــة... يتكلم في كل فن، ويـــأتي فيه بالعجائب والفرائد، وقد كان لي شـرف التتلمذ عليـه، وقـرظ لي (طلائع السلوان في مواعظ رمضان).

ثم تمثيلك بعـالمين سـلفيين عظيمين، وإعراضك عن الآخـرين، يعني شيئا من العنصرية المذهبية، وهو ما يتهمنا به الخصـوم بأننا

نمارس المصادرة والإقصاء طيلة حياتنا العلمية والدعوية، وانتهى بنا الفكر السلفي على زعم المخالف إلى إحدى صورتي التطرف ، إما المداهنة الكاملـة، أو المنابـدة الماحقة في صـورة التكفـير والتفجير، التي تلصق كثيراً بالفكر السلفي الوهابي !!

وكـأن الشـيخ هـداه الله لم يعلم أن الشـيخ الألبـاني، تعلم من الشيخ أحمد السالك الموريتاني، والشيخ العلامة ابن سعدي تلقى عن الأمين الشـنقيطي، ولم تكن ثمة عنصـرية أو اقليميـة، بل العلم رحم بين أهله.

فضائل حفاظ المتون

1) التميز العلمي :

حفظ المتون طريق التميز العلمي، حيث يعلو حافظهـا، ويسـود بين أقرانه وأصـحابه، ولايكـاد يُسـأل عن مسألة إلا يستحضر مـاذا قـال فيها صاحب الألفية إن كانت لغة، أو فقهاً أجـاب كما قـال القـدروي الحنفي أو الحجاوي في زاد المسـتقنع، أو كـانت أصـولاً طـلَّ عليك بالورقات للجويني، أو مرايي السعود للعلوي...

وهذا الاستخصار ووجـوده، سـببه الحفظ والاتقـان الصـانعان للتمـيز والنبـوغ، ومن حفظ حجة على من لم يحفظ كما قـال الأئمة قبلنـا، **وقد قـال الحافظ ابن حجر في مقدمة (بلـوغ المـرام) (وقد حررته تحريـراً ليصـير من يحفظه نابغة بين أقرانه**) وهذا في النصوص وشبهها المتـون الأخـرى. والمهم أن حفظ المتن مزية للطـالب، وتنويه بشـأنه وعتمـاده على ركن شـديد، يفخر به ويجيب به إذا سُـئل، وهي متمحضة عن أفهـام العلمـاء وتفسـيراتهم للنصـوص، تجعلها مـداخل لاختصـار العلـوم، وبعضـها آلات لا يُفهم الوحيان بدونهما، كعلوم اللغة والأصول والمصطلح.

والتميز يكون هنا من جهات :

1- حيازته لمتن علمي، تلقاه الناس بالقبول لاسيما في بلده.
2- إفتاؤه به كلما سُئل أو سنحت الفرصة.
3- احتجاجه به في المناسبات والمناظرات.
4- حرصه على مراجعته وتدقيقه، وفك مسائله وألغازه.
5- وقوفه على مهمات العلوم، عبر هذا المتن الضيق الصغير.

2) ضبط معالم الشريعة :

فــإن الحافظ مثلاً لمتن الطحاويــة، أو كتــاب التوحيد المعتمد في البيئة العلمية السـعودية يخـرج بـإدراك عـام لمعـالم الـدين، ووعي لأصولها ومبادئهـا، وكـذلك حافظ الواسـطية، أو لوامع الأنـوار البهية للسـفارينى أو سـلم الوصـول في العقيـدة للشـيخ الحكمي، فكيف يقال لهذه إنها تعطيل عن فهم الكتاب والسنة وتدبرهما ؟!

وكذلك القول في المتـون الفقهية كمختصر خليل والمنهـاج والهداية والــزاد، هي اســتنباط فقهي من نصــوص الوحيــيين، وليست رأيــاً محضاً، ولوعدت لأدنى حاشية أو شـرح لـذلك المتن لطـالعت سـرد النصـوص والأدلـة، فهي منظومة عامة لمعـالم الفقه الإسـلامي.. لا تكفي لمجــرد الفقــه، بل هي مفتــاح مبتــدئي، يحمل صــاحبه على البحث والسؤال والتحشية، وجرد المطولات والتعليقات.

فمطـالع الـزاد وحافظـه، ينطلق بعـده للـروض المربـع، ثم الكـافي فالإنصاف، فالمغني.

وكـــذلك في كل مـــذهب تجد سلســـلة من المتـــون والشـــروح والحواشي، تنتهي بصاحبها إلى المبسوط عند الحنفية، والتمهيد عند المالكيـة، والمجمـوع عند الشـافعية، والمغـني عند الحنابلـة، وهلم جرا.

وكتب اللغة والأصـول تكشف منـاهج الاسـتدلال، وتضـبطها، وتعلم النشء المسالك الصحيحة للاسـتنباط والفهم والاسـتدلال، فصـارت من منبع الشريعة بهذا المعنى، فلم التضـجر منها ؟!. وقد اسـتفاض عند أئمة الإسلام أن الفقيه لا يكون فقيهاً حـتى يكـون أصـولياً، وهو المتكلم في الحلال والحرام المقتبس من نصـوص الشـريعة!! وصح قوله صلى الله عليه وسلم : (**من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين) .**

3) حضور الحجة :

ضـبط الفن، علامة الحفظ والتيقـظ، وحضـور الحجة في كل وقت ، وهذا شرف وتميز بحد ذاته.

والمتن متعلق بذهنه أينما حـل، يسـتدل به ويـرد، ويـدفع، ويـنـاظر، ويقرر، بخلاف غيره، الحامل للأوهام والتخرصـات والنقـدات العلمية بلا دليل، ولا مجير ولا معين كما قال تعالى : (**قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ).**

وقال سـبحانه **: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَـادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْـرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ)**.
والحجج هنا متنوعة منها العقائـدي والأصـولي والفقهي، والحـديثي واللغوي والنحوي أو البلاغي والاصطلاحي.. وكلها دائرة إطـار العلم، ولم يقل عـالم معتد بعلمه إنها حشـو، لا قيمة لها بل حجج علميـة، وبراهين تأصيلية.!!

4) الحفز الفكري :-

لما كانت المتون ضـيقة الصـياغه، مسـتغلقة الفهم، ذات كلمـات محبوكة مقفولة، كان ذلك دافعـاً للتلميـذ، أن يحـرك ذهنه للبحث والسؤال، وتقييد الحواشي والتعليقات، بل إن ترديدها دائماً يعتبر نقشاً ذهنياً على جدار الذاكرة يحتاج إلى فك وتحليل.

فمثلاً لو فتحت أي متن فقهي، سـتجد ما يثـير الفكر للبحث والاستكناه كقول أبي شجاع الشافعي مثلاً في تقريبه رحمه الله (الـبيوع ثلاثه أشـياء: 1- بيع عين مشـاهدة فجـائز. 2- وبيع شـيئ موصـوف في الذمة فجائز إذا وُجدت الصفة على ما وصف به. 3- وبيع عين غائبة لم تشاهد، فلا يجوز).

فهذا النص يستدعيك للتعليق، وتتبع شروح المتن، وتحريك الذهن كثـيراً فـترجع إلى بعض شـروحه نحو كفاية الأخيـار لأبي بكر الحصني، ومنح القـريب المجيب للغـزي والإمتـاع في حل ألفـاظ أبي شجاع للخطيب الشربيني وغيرها.

والمحصـل، أن عملية الحفز الـذهني، حاصـلة بتحفظ المتون، للأسباب التالية :

1) استغلاق عباراتها وعسرها.

2) دقة وضعها بما يجعلها كالجمل المفيدة والحدود المنيعة.

3) فلسـفتها الوضـعية الباعثة على التفهم والتطلـع، وحب الاستخراج والاستلهام، وهي بهذا المعنى، تـثري الـذهن وتوقظـه، وليست تسقمه أو توهنـه، كما يقـول الشـيخ الفاضل ! ولا كـذلك

تضعف الملكة كما يقول الإمام الفليسوف ابن خلـدون رحمه الله في مقدمته كما سيأتي الرد على ذلك.

5) صقل الذهن :

والمعنى أنها تجلوه وتشحذه، بحيث يصير واعياً، قد طاب نضـجه، وحسُن أداؤه، **والصقل جاء هنا من ثمرات المتون وسببه :**

1- امتلاء الذهن بعباراتها المحكمة، وتقريراتها المتقنة.

2- استدامة تكرارها، والاحتجاج بها في مناسباتها. وكان مشــهوراً في بعض المــدارس الفقهية التنــاظر بتلك المتــون الفقهية و اللغوية، حتى تفجر النبوغ وتبعث الملكة.

3- تدقيق عباراتها وتقصيرها، بحيث كأنها ضرب من جوامع الكلم، الــذي هو مكــون من عبــارات قصــيرة، تحــوي معــاني كثــيرة، وشراحها جعلوها كذلك، مما يدل عل أن هــذه المتــون لا يكتبها كل إنسان، بل لا بد لها من تمكن علمي لغــوي بيــاني، منطقي تصنيفي ، يقطع الطريق على كل متعقب ومستدرك.

6) البناء التأصيلي :

قال تعالى : (**أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ**)

ومثل هذه المتــون كالقاعــدة الأرضــية الصــلبة، الــتي تحكم ســير الطالب، وتضبط سلوكه، وتحدد معالم تفكيره، لئلا يتيه أو يضــل، ثم بعد ذلك ينطلق طــائراً في حــدائق المعــارف والعلــوم، **فالقسمة في الطلب على قسمين :**

1) طالب يقرأ قراءة عامة، ويتثقف للعلم والتحصيل بلا محفوظات.

2) وطــالب لا يقــرأ كثــيراً ، ولكن ركز على متــون محــددة، يعيــدها ويكررها حــتى ترسخ كالفاتحة والمعــوذتين.. أيهما أنفع في الطلب، وأيهما أقـدر على الاستحضـار والاحتجـاج يـوم المصـاولة والمداولة.؟!

وقد قال تعالى : (**وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ**)

وقـال صـلى الله عليه وسـلم لوفد بـني عبد القيس لما علمهم الكلمات الخمس..

(**احفظوهن وأخبروا بهن من وراءكم**)

والعملية هنا تسـتوجب المـذاكرة والاسـترجاع، وبـذل شئ من الاهتمـام.. وليس مجـرد التثقيف العـام، الـذي ينتابه النسـيان، والنقصان.!!

فحامل المتون، مثل الذي شـيد بيتـاً على أسـاس مـتين، لا تهـزه العواصف والتقلبـات، والمثقف العـام حـتى ولو كن نَهمـاً، كالـذي بـنى بيتـاً بـدون أدنى اهتمـام بأساسـياته وقواعـده الغـائرة في الأرض.. سيهتز عند أسـهل اختبـار زاحف **(فَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَـهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْـرٌ أَم مَّنْ أَسَّـسَ بُنْيَانَـهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ)**.

أبـداً لا يسـتويان، ولـذلك قد يتعب الحافظ ويهتم، بخلاف غـيره، ولكنه يجني الكنوز والعجائب، كما قال الزمخشري :

أأبيتُ سهراَن الدهر وتبيته نوماً وتبغي بعد ذاك لحاقي

7) وعي المفاتيح :

يكـاد يتفق علمـاء الأمة وجهابـذتها، أن هـذه المتـون مفـاتيح إلى تفاصيل وعمق تلك العلوم المرضية، ولا يعني حيازتها حياز الكمـال، أو الوقوف على أغوار المكنونات الفريـدة، بل هي مـداخل ومفـاتيح ومقـدمات، من وعاهـا، حملته على أخواتها المتسـعات، وقريناتها المبسـوطات، واسـتطاع من خلالها أن يفقه مفتـاح كل فن، ويمهر ألفاظه ويدرك تفاصيله.

ولهذا هي مقدمة أساسية لإدراك معالم كل فنّ، أو ضبط مسائله العامة وفقه أصوله الكلية.

فمُلحة الأعـراب مثلاً حافظهـا، يؤسس قاعـدة نحوية لأصـول الإعـراب، ووعي المصـطلحات العامـة، وكـذلك حافظ البيقونية يحـدد معـاني المصـطلحات الحديثية في

جلها وليس كلهــا، بعد ذلك يتجه إلى شــروحها أو يقرأها على شيخ يدرســها، حـتى يتمكن من علم الحـديث، الـتى ستهديه إلى وعي الأسانيد والحكم على الأحاديث.

وكذلك من يحفظ العمدة أو الهداية أو مختصر خليل، يلم إلماماً عاماً بمسائل الفقـه، ويحفظ أصـولها، واختبـار المـاتن فيهـا، ثم بعد ذلك يتجه إلى المطولات والشروح بكل سـهولة وانشـراح، لأنه حـاز المفتاح، وفقه طريق أرباب الفلاح.

أمــالو أنه بــدأ مباشــرة في المبســوط أو المغــني أو الروضة أو البدائع، لتعب وملَّ واستحسر من الطول والصعوبه فيلفهم هذا !.

8) التحاجج الحواري :

إنَّ حفظ المتون وما تحويها من ضبط ودقة متناهية، تعلم صاحبها وعي الحجج، والمقارعة بها، وصد الخصوم بمفردات أهل العلم، لأن بعضها بات كالقواعد الرئيسية، ومحل احتجاج واعتراف الجميع.

لأنها دقيقة ومختصـــرة، وموجهـــة، ومعجمـــة، فمن تعلمه النحو لجملة مفيدة يحسن السكوت عليها، تقول له مباشرة :

قول بن مالك :

كلامنا لفظ مفيد كاستقمْ اسم وفعل ثم حرف الكلمْ

وقول ابن رسلان مثلاً في حرمة الطعن على الصحابة، والخــروج على الأئمة في (متن الزبد)

وما جرى بين الصحاب نسكتُ عنه وأجر الاجتهاد نثبتُ

ولم يجز في غير محضِ الكفرِ خروجنا على ولي الأمرِ

وقــول الشــيخ حافظ الحكمي رحمه الله في الســبل الســوية في الفقه في حكم الحجامة للصائم

وفي الحجامة اختلاف والأصحْ جوازها إلا لذي ضعف وضحْ

إذ صح أن آخر الأمرينِ ترخيصه فيها بدون مينِ

والنظم العلمي قد يكـون أحلى وأدق وأسد من الكلام المنثـور، وقد برع فيه السادة الشناقطة، أعلاهم الله أيما براعة، واخـترقوا العلم، وشقوا الصعاب، وأتوا فيه بالعجائب.

نحو قول بعضهم في حكم الروايه بالمعنى :

رواية الحديث بالمعنى اختلفْ فيها كثير من أكابر السلفْ

فذهبت لمنعه منهم زُمَرْ موافقو عبد الإله بن عمرْ

والحق أن العار كل العار في تبديل لفظه لغير العارفِ

وقال بعض علماء الشناقطة في نظم الأمور الخمسة التي يتغير بها الحكم الشـــرعي ،وقد حفظته من شـــيخنا العلامة محمد الحسن الشنقيطي حفظه الله :

يختلف الحكم بُخلْف المقصـــدِ والشـــخص والحـــال ووقت البلدِ

ولم أر من ممـــاثلهم في ذلك من علمـــاء المملكة ولا الأمة ســـوى قلائل منهم الشيخ العلامة حافظ الحكمي رحمه الله.

ومنهم النـاظم الكبـير الشـيخ محمد مولـود بن أحمد فـال صـاحب الكفاف وغيره وفيه يقول في حكم المذي للصائم :

والشافعي وأكثر الجهابذِ لا يوجب القضا لديهمُ المذيْ

وهذا باب طويل يتأبى على الحصر !!

وقد تعلم العبد الفقير ذلك منهم، إضـافة إلى حفظي قـدر كبـير من ألفية العـراقي والسـبل السـون والرحبية ثم تعـرفت على شـيخنا محمد الحسن ددو، فأذهلني وهزني للنظم والإبداع فيه وقد نشـرت

في ذلك (**اللؤلؤ المنظـوم في تقـريب العلـوم**) حاويـاً ست منظومـات علميـة، غـير المخطوطـات المركونة إلى الآن، وأجوبة علمية تقيد في ساعتها، نشرت تحت مسمى (**جوابات الساعة**).

وأعد مثل ذلك فتحاً علمياً ، وتقريباً مرحلياً للطلاب، يـوفر الـوقت، ويختصر الكلام، ويحبب للعلم والمعرفة...

9) الانتماء الشرفي :

والشرف هنا في المتون من جهتين :

الأولى : جهة العلم المضبوط فيها

الثانية : جهة الانتســاب لهــؤلاء العلمـــاء، والعيش مع علمهم ومشاعرهم ومافخر الطالب، وأعزَّه عندما يقول امتن الله علي بحفظ الألفية النحويـة، أو الحديثيـة، أو الفقهية أو البلاغية أو الأصولية، سيصبح من أبناء هذا الإمام... والحامل لإرثه، والـداعي لكلامه، والمدرك لمغازيه.

وأعتقد أن الانتمـاء لهـؤلاء، خـير وأشـرف من الـزج بالـدعاة في مشـــاريع تغريبيـــة، تســتهدف هوية الأمة ودينها من خلال قنـــوات سقيمة أو وسائل إعلامية بليدة..ُتقـدم النـاس.. وهي لاتـزال تجـرر أذيال الخيبة والتخلف على حد قول الشاعر اليماني البردوني :

القائلونَ نبوغَ الشعب ترضيةً ً للمعتدين
وما أجدتهم القربُ

ولما كتب الحافظ ابن حجر وهو الشـــيخ القاضي المحـــدث الفقيه المؤرخ، حذام المحدثين متنه نخبة الفكر وشـرحها نزهة النظر قـال (**فســألني بعض الإخــوان أن ألخص له المهم من ذلـــك، فأجبته إلى سؤاله رجاء الاندراج في تلك المسـالك**) (نخبة الفكر ص1).

فهذا هو الانتماء الشـرفي الكبـير، الـذي يحصـله المـرء من الإقبـال على المتون والتهامها التهاماً كاملاً...

وكيـف، حينما تحفظ متونـاً محشـوة بالآيـات والأدلة كالواسـطية أو الحمويـة، أو التوحيد وغيرها من المتـون، الـتي تم خلطها بـالمتون

الآلية المجـردة.. بلا شك ،أن ذلك كـان في الشـرف والحمد فـوزاً كبيراً، وعلواً باذخاً، جعلنا الله وإياكم من أهله وزمرته؟!!

10) الوعي المنهجي

الذي لم يدركه بعض الفضـلاء أن ثمة شـيئاً في المتـون العلميـة، قلما تنبه إليه بعض الشـيوخ الناقـدين لمنهج المتـون، وهو احتواؤها على طرائق المصـــنفين، ومعرفة المنهج المســـلوك في الكتابـــة، ومضـــامين ذلك الفن، والعلم المعـــتزم اختراقه بالحفظ والاتقـــان.. وكيفية ترتيبهم للموضوعات، والتبويبات وأيهما المهم من سواه، مع أنها مبنية على التضـييق والاختصـار، لكن بالحفظ وطـول التمـرس والتأمل تفهم، وتُـــدرك، ويصـــبح التلميذ ذا وعي وخـــبرة بطريقتها ومقاصدها ومنهجها الفكري والترتيبي.

وهـــذا بلا ريب أنه يفيد الطـــالب في ضـــبط مســـاره العلمي، وخطه الفكـــري، يعلمه مهمـــات المتن، وكيفية اختصارها، ثم التعلم من شكلها في الكتابة.

ولذلك يلاحظ أن المتون تختلف طولا وقصراً في شتى العلوم والمذاهب، بل داخل المذهب الواحد تجد المختصر والمتوسط والموعب، وهذا راجع لقدرات المـاتن العلمية والذهنية وقصده التـأليفي، لأن بعضـهم يقصد المبتـدئين وآخر المتوسطين، وآخر يفصل وآخر يختصر بشدة، وهكذا..

ومثل هـــذه الأمـــور يـــدركها التلميذ بـــالتركيز، والحفـــظ، ودوام التكرار، والمراجعة، والمقارنة.

ومع طول الزمان والتمكن يستدرك الطالب على المـاتن، ويـرى مواضع إحسانه وإخلاله... **والله الموفق...**

11) التنشيط الذاتي :

وهذه فضـيلة هامه لحفـاظ المتـون، أن حفظها مظنة فهمهـا، ثم التفكير فيها إلى أن يحرص على شـروحاتها المختصـرة.. ويمكن أن نقول إنها حفازة الهمم، ومشعلة العزمات، لأن الطالب إذا فرغ من المتن في وقت وجـيز، جـرّه ذلك إلى حب الفهم وإدراك المسـائل والمصطلحات، وهذا لا يتأتى إلا بالحضـور عند شـيخ أو الرجـوع إلى حاشية صغرى على ذلك المتن.

فمن يحفظ زاد المستقع ويلم به ينطلق مباشرة إلى الروض المربع، ثم يتدرج إلى حاشية الروض لابن قاسم وهلم جرا.

فلو لم يحفظ المتن لكان فوضوياً في القراءة، وربما ابتدأ بالروض أو الحاشية أو غره شكل طبعة المغني، فلجأ إليها، وسمع شيخاً يثني على المجموع فهُرع لاقتنائه فلا متناً ضبط، ولا مسألة حفظ، والله المستعان.

فالمقصود أن تقليل المحفوظ عبر المتون المختزلة، باعث على النشاط والبحث والسؤال المسارعة، وصدق القائل : (**حفظ النصوص مظنة فهمها**).

والقائل (**من حفظ المتون حاز الفنون**) حيازه أولية بضبط معالم الفن، وحيازة نهائية بالحمل على التوسع في فهم المتون، إلى الحيازة الكاملة وهذا لم يفقهه من لم يعتد عليها أو يجبها، والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل..

12**) التدرج الطلبي :**

حفظنا من أدبيات الطلب (**من رام العلم جملة، فاته جملة**).

ولذا كان من فضائل المتون، أنها درجة من درجات السلم المعرفي، حفظ ففهم، فتأمل، فاستيعاب، تحمل صاحبها على الأناة والتدرج وعدم الاستعجال، وفي الحديث قال صلى الله علي وسلم : **(إنَّ فيك لخصلتين يحبهما الله : الحلم والأناة).**

والأناة العلمية تُصنع من خلال الاقتصار المبدئي على المتن، وعدم تعديه إلى الشروح والمطولات.

لأن الذاهب إلى المطولات كالتمهيد مثلاً أو المبسوط أو فتح الباري سيخرج بالانطباعات الآتية :

1) **طول المسار العلمي وصعوبته.**

2) استثقال العلم بسبب ما يلاقيه من مصطلحات غير مفهومة، وتفصيلات غير مدروكة.

3) **عدم الإنجاز والإنتاج، حيث يمر الوقت وهو لايزال في أول الكتاب.**

4) تذويب آلة الحفظ لديه لاسيما للناشئة والغلمان، واستبدالها بالفهم المتعذر على مثل ذلك السن. ولهذا

كـــان الأنسب لصـــغار الطلبة التعويل على الحفـــظ، والانصراف بجدية لابتلاع المتون الأولية.

ولهـذا كـان الحفظ هو المرشح ابتـداءاً للناشـئة، وهو الـذي سـار عليه الأئمة قبلنـا، يحفظـون أبنـاءهم القـرآن والسـنة، ثم أمهـات المتـون والمنظومـات العلميـة، والفهم يـأتي تباعـاً بعد الترسـيخ والتثبيت.

شبح المائة متن !!

لم يفــرض أي عــالم، ولا مدرسة علمية تحفيظ التلاميذ (مائة متن) دفعة واحدة، بل إن المنهج المتبع غالبــاً هو حفظ القــرآن، ثم كتـاب حــديثي، ثم فقه مــذهبي، ثم متــون في علــوم الآلــة، وهي لا تعطي كلها في سنة واحدة، هذا من ناحيــة، ومن ناحية أخــرى العلم فضـاء فســيح، يتخذ الإنســان منه ما يطيب له بعد الوحــيين، فمن يميل للحــديث ركز على المتــون الحديثيــة، والمعلومــات الاصــطلاحية، والفقيه، يعكف على متون الفقه ومنظومات الأصول، واللغوي على نتاج اللغويين والأدباء.

لكن العلماء ولم يفرضوا مائه متن، تــرهب الطلاب، وتخيفهم من مناهج العلوم، كلا!

هذا لا يستقيم ، ولم يقل به أحد!! لكنهم سـنوا سـلم التـدرج في العلوم، وقالوا: كيت وكيت ...

وكل من صـنف في منـاهج التلقي والطلب نبه على ذلـك، وكـره بعضهم تجاوز متنين أو ثلاثة حتى حفظها. وأنت ياشـيخ عـائض ممن نصيت على ذلك في كتابك (كيف تطلب العلم).

(وكتب في الساحة الإسلامية) وانظر ما كتبه الشــوكاني في أدب الطلب والشـــــيخ حامد العلي، وقبلهم ابن جماعة في التــــــذكرة، والنــووي في مقدمة المجمــوع، وقد كتب النــاس في ذلك كثــيراً، وللعبد الفقــير (المنهج الصــفي للطــالب الــوفي) و (أدوية الشــتات العلمي).

كل هـــذه الكتب تفصل وتحـــدد، وتتنـــدرج، أما قـــولهم متن في الأصول ، ومتن في اللغهة، ومتن في المصطلح...الخ

فهـــذه كلها علـــوم آلـــة، لما كـــانت معينة على فهم الشـــــريعة، ولا يفهم الوحيـــــان إلا بها نص عليها الأئمة الكتبة في المنـــاهج، كالشـــوكاني في أدب الطلب، وبكر أبوزيد في حلية طالب العلم، ولم يفرضوها على التلاميذ

إلا من وجد نفسه متطلعة إلي ذلك ويحب الجامعية والإبحار العلمي.

ولم يقل أحد أن هــذه المتــون تؤكل في لقمة واحــدة، بلا تــدرج وتمهل، ثم إنها قد تصلح لطالب ولا تصـلح لآخـر، لـذا قد تجد فقيهـاً متمكناً..

ولكنه لحّـان لم يهتم بـالنحو! ولم يضـبط متنـاً فيـه، وينكشف إذا تعـرض لخلاف فقهي مبـني على قاعـدة نحويـة، نحـوتحرير معـنى حرف الباء في قوله **(وَامْسَحُوا بِرُءُوسِـكُمْ)** وقــراءة (**وأرجلكم إلي الكعبين**) بــالخفض، لمن يحتج بأصل المسح على الخفين من الكتاب، أو تجد ذلك الفقيه الراسخ، بلا تمهل في الأحــاديث، بســبب إهماله للمصـــطلح وحمله للغـــرائب والضـــعاف على طريقة بعض الفقهاء.

أو تجد محدثاً جهبـذاً، ولكنه أهمل دراسة أصـول الفقـه، ثم يـأتي يتفقه بلا تأسيس أصولي، وفهم لمنـاهج البحث والنظر والاسـتدلال، فيقع في المحك الذي يتندر به عليه خصـومه والله المسـتعان. ولما ُوضع بعض الفقهاء على درس الحديث، وليس من فرسانه، قال فيه بعضهم:

بالجاه تبلغ ما تريد وإن تردْ .:. ُرتب المعالي فليكن لك جاهُ

أوما ترى الزين الدمشقي قد ولي .:. درس الحديث وليس يدري ما هو ؟!

فلابد حينئذ من وعيٍ، لماذا كـثرت المتـون والسـبب عائد إلى أمور:-

1) ازدهــار الحيــاه العلمية في الأمة الاســلامية، ونشــاط حركة التـــأليف إلى درجة أنك تجد في المـــذهب الواحد متونـــاً مختلفـــة، وينظر البعض لـــذلك من رؤية إيجابية حميدة.

2) تنافس أهل العلم، وانشراح صدورهم للإفــادة العلمية والابتكار الفكري الجديد.

فمثلاً عنــدنا العقيــدة الطحاويــة،فلمعة الاعتقــاد، ثم الواســطية، فالحموية، ثم جاء السـفاريني، وكتب المنظومة المعروفـة، فالشـيخ حافظ سلم الوصول، فالشـيخ محمد بن عبد الوهـاب كتـاب التوحيد والأصـول الثلاثة والمســائل الأربــع، فالشــيخ ابن بــاز في العقيــدة الصحيحة، فابن عثيمين عقيدة أهل السنه والجماعة... وهلم جراً ... لن يقفل الباب!

حاديهم في ذلك، التنافس الشريف، وتقديم المفيد، ونفع التلاميذ، لا أنهم يطالبون الجميع بقراءة كل ذلك وحفظه.؟ واستدامة التـدريس العلمي يخرج تلكم المتون والمختصرات...

3) **اتساع الأمة، وتفاوت أذهان الناس، وعقـول التلاميـذ،** فتجد تلميذاً شافعياً يرتاح لمتون الغـزالي، وآخر للنـووي، وآخر لابن رسلان، وهلم جراً في كل مذهب.

وقد يغلب إرث إمـام مجـدد على بلد معين، فينفضـلونه على غـيره، كغلبة فقه مالك وتلاميذ في بلاد المغــرب، وغلبه فقه أئمة الـــدعوة السلفية على المملكة، حتى نسينا المذاهب الأخرى وكتبها.

بل نسي بعض السلفيين كتب الحنابلة الأخرى (كعمدة الفقه، ودليل الطالب، ومنار السبيل).

بســبب التعويل على كتــاب معين، بــات مقــرراً في كل المــدارس والمســـاجد، والجامعـــات، ولا غضاضة في ذلك لأســـباب تاريخية وعلمية ومنهجية....

والعلماء الموجهون، قد ينشـرون كتبـاً، ويوصـون بها فيكتب الله لها القبول، بسبب خروج التوجيه من عالم راسخ متمكن، لكلمته حظوة عند الناس...

4) **ظهور مستجدات علمية، ونـوازل عصـرية،** تفـرض على الماتن، إضافة تلك المسائل أحياناً، او التعقب على ذلك الشيخ...

وهو ما كان ينبغي على الشيخ عائض، هداه الله طرحه، والتنويه به، تجديد تلك المتون وتطويرها، لاسيما وأنها مسـألة خاضـعة للنقـاش، وفيها تنبيهــات لطيفة لبعض من كتب في (تجديد الفقــه). وتقــنين القضاء والموقف من النوازل، وكيفيه إدراجها في أبواب الفقه، وهو ما أشــار إليه الشــيخ ســيد ســابق رحمه الله في كتابه المــاتع (فقه

السنة) والشخ الفقيه الزحيلى وهما مشـروعان كـان يجب الإشـاره اليهما، والتنويه بجهودهما والسير عليها، وتحديثها.

أما إطلاق الكلمــات هكــذا جزافــاً بلا حــل، ورمي التهم بلا بــديل وتفصيل، فأنزه شيخنا القـدير، أن يعـود إليها مـرة أخـرى، لأنه أرفع في نفوس محبيه من ذلك المسلك، ويحق للمعترض حينها أن يسدد علينا التهم العالمية الـــتي تلصق بالمملكـــة، ودينهـــا، وعلمائها وسـلفيتها، وسـتجد كمـاً هـائلاً من الكلمـات، ربما في بعضـها حقـاً يســتوجب منا المراجعة الفكرية والمنهجيـــة، لا ســـيما ما يتعلق بالتخنـدق حـول فكر شـيخ الإسـلام ابن تيمية رحمه الله وتجديـده، وعدم تجاوزه إلي غيره...

ولا أظن الشــيخ ينكر ذلــك، وهو من محــبي ابن تيميــة، قد صــنف وحاضر فيه الكثـير من الملفوظـات وللعبد الفقـير، رسـالة صـغيرة في ابن تيميـة، ثنـاء وتبجيلاً، ولكـني ألـوم من يسـقط ابن تيمية في كل شئ حقاً كان أو باطلاً...!

ولا يخفـاك ما حصل في مسـألة رضـاع الكبـير ، ومسـألة التـترس، وفتـوى ما ردين، وتطـبيق الحـدود للأمـة، وغيرهـا، جمعتها كلها في رسالة يسر الله خروجها بعنـوان (**الجناية على اختيـارات شـيخ الإسلام ابن تيمية).**رحمه الله.

وفيها أُبرئ ساحة هذا الإمـام من الإقحـام والتعصب وضـيق العطن، وأدعو إلى انتهاج عقليته الفسـيحة، والمتفتحة على كل الاجتهـادات، والضاربة في كل فن وعلم، ومسـاره التجديـدي العجيب. رحمه الله رحمة واسعة...

وعوداً على مسألة (المشروع التجديدى) في العلـوم.. قد يقـول شـنقيطي معـترض: إنك أنت أسـتاذ الحـديث قد ألقيت أكــثر من ألف محاضــرة، وشــرحت المســند والعمــدة والبخــاري والطحاوية وكتاب التوحيد... ولم تقدم شـيئاً جديـداً في ذلـك، وإنما كـررت ما قالته الشـروح والحواشـي... (أي عملية تكـرار واجـترار) ومحاضراتك الدعوية، نفع الله بها خلائق لا يُحصون.. ولكنها لا تحمل

ســـمة التجديد الـــدعوي، وليس فيها فكر منهجي.. إنما امتـــازت بالوعظ الرقراق، والذائقة الأدبية الشائقة.

لكنها لم تقفز بالمحاضـــرات، وغلبت عليها العاطفة والحمــــاس، المضمخ بالشعر والقص والرجز ... بل قد يشتط، الناقد ويبـالغ بأنها كـانت أرضـية خصـبة لمشـاريع الفكر المتطـرف، الـذين ما برحـوا يلومـــونكم على تراجعـــاتكم المتواليـــة، وأنتم تعتبرونها تجديـــداً وتطويراً، واعترفت في بعض مقالاتكم بأنكم لم ترضـوا الحـداثيين ، ولا التكفيريين، ولازالت السلطة مرتابة منكم ؟! فما الخطب شيخنا الفاضل ؟!

هل تعتقد ما ذهبت إليـــــه؟! أم أنها زلة قلم، أم تطـــــور منهجي خالطكم من جراء الدنو والتسامح مع الليبراليين والعلمانيين.. لأنهم هم أصـحاب الهجمة على المتـون وكتب الـتراث، وينعتونها بـالكتب الصفراء ؟!!

ولا يفرقــون بين المتــون الأصــلية والمتــون الآلية وودوا لو انقلبت الأمة على تراثهـا!! لأنه حجر عــثرة أمــام مشــاريعهم التغريبيــة، ويحـــاكون أوروبا في هجمتها على القـــديم والمـــوروث، وربطـــوا نهضـتهم بـالثورة على الـتراث، بكل ما فيـه، دينـاً، وعلمـاً، وقيمـاً وحضارة...

وقد يعتبر بعض إخواننا السلفيين والشناقطة أن ذلك دعوة مشـابهة للطرح العلماني الحداثي، وننزهك عن ذلك !! ولكن صاعقة المقـال ووسمه (بالمهزلـة) تجعل المـراقب والناقد يـذهب فيها كل مـذهب، ويعتبرها صـدى لـدعوات مغرضة تجتـاح المملكـة، وتجيشُ غـارات ملتهبة على التراث السلفي المحافظ..

وهذا شكل نقدي تقويمي، قد تسـمعه من بعض الأطـراف، اعتمـاداً على القاعدة النقدية والمثل العربي (**من غربل الناس نخلــوه**). والطــرق العلمية شــيخنا الكــريم، يمكن معالجتها والتحــديث فيها بأهون مما قلت على المتون، وعلى بعض المدارس التعليميــة، لأنها تختلف بـاختلاف البلـدان والعـادات كما قـال ابن تيمية في الوصـية الصغرى، وتقدمت الإشارة إلي ذلك.

المسلك الخلدوني في التعليم

الإمــام عبد الــرحمن بن خلــدون رحمه اللــه، من علمــاء المغــرب المتفنــنين، والعبــاقرة الأكــابر الــذين أشــغلوا الناس بنظرياتهم الفلسفية والنقدية، ولعل كتابه (المقدمة) من أنفس الكتب التاريخية والمنهجية الفكرية، الــتي تنــاولت قضــايا كثــيرة، كــانت محل إجلال القــراء والبــاحثين، وله آراؤه الاجتماعية والفكرية والفلسفية والمنهجية النقدية المفيدة.

وقد اتكأ الشـــيخ عـــائض وفقه اللـــه، إلى كلمة نقدية لـــه، في المختصرات العلمية وهي قوله (**ذهب كثير من المتــأخرين إلى اختصار الطرق والإنحاء في العلوم، يولعون بها ويدونون منها برنامجــاً مختصــراً في كل علم، يشــتمل على حصر مســائله وأدلتهــا، باختصــار في الألفــاظ، وحشو القليل منــه، بالمعــاني الكثــيرة في ذلك الفن، وصــار ذلك مُخِلاً بالبلاغة وعَسِراً على الفهم)**، (المقدمة ص443).

وملخص نقد ابن خلدون رحمه الله للمختصرات يحوي على كونها :

1**- مخلة بالبلاغة أي سياقها اللغوي!**

2- وكونها عسِرة الفهم!

3- كونها لا تربي الملكة!

وهــذا صــحيح من حيث المبــدأ، لأنها تحمل معناها في اســمها، فهي مختصرة قصيرة، ضيقة العبــارة، وبالتــالي ســينغلق فهمهــا، وتحتــاج إلى شيخ، أو حاشية كاشفة، وطــبيعي أن بعضــها قد لا يــربي الملكة إذا اقتصر عليه الطالب، ونام زمنه مراجعــاً للمختصــر، ومتــأملاً فيه بلا شروح ولا مطولات، ولا نواقض واعتراضات.

<u>أما مسلكنا الصحيح الذي نختاره لحفاظ المتون مايلي :</u>

1) اعتماد المتون الجيده ذات الشهرة الوسيعة، والثناء الحقيقي.

2) قراءتها على شيخ، والتدقيق فيها، ثم الانتقال إلى شروحاتها، أوأمهات كتب العلم أو المذهب.

3) أن الملكة تنحصر بالاكتفاء، وعدم النزوع للجديد والمفيد والمثير، وإلا فكل أرباب المذاهب ومحققيهم، تربوا على هذه المتون وضبطوها، وصاروا من أوسع الناس ملكة وأدقهم فهماً، وأسدهم تحريراً من نحو: الغزالي والجويني والنووي وابن الصلاح والعراقي، وابن عبد البر، وابن حزم وابن تيمية وابن القيم وابن رجب ومشاهير كثيرين ، لم تأت المناهج الحديثة المعتمدة على مذكرات جامعية، بأشباههم!!

ومن المعاصرين :

ابن باز وابن سعدي وابن عثيمين والأمين الشنقيطي وسيد سابق و الزرقا وابن بونا والجكني الشنقيطي وغيرهم..

4) عدم جعل المتن غاية الغايات، ولعل الإمام ابن خلدون رحمه الله قصد المكتفي بها، والمتشبث بنهاياتها، ممن خمل ذكره، وهانت همته.. ولم يُشام الأئمة، ويلاصق المطولات والشروحات.

ومن سميت من الأئمة السابقة أسماؤهم، كانوا أهل متون وحفظ ، ثم تدرجوا وتعاملوا مرحلياً مع العلوم، حتي صنفوا، فبانت لنا مَلكاتهم، وسعة أذهانهم، وتنور بصائرهم، وحسن تعاطيهم، وكيف أنهم لم يكونوا صدىً لمتون صغيرة، أو منظومات محدودة، بل فجروا العجائب، وأذاعوا النفائس والفرائد.

فهذا الغزالي وكتبه الفقهية، والمستصفى في الأصول وابن عبد البر في التمهيد والاستذكار، والنووي في المجموع والسرخسي في المبسوط، وابن حزم في المحلى، وابن تيمية في الفتاوى، وابن القيم في الزاد والتهذيب وأعلام الموقعين وغيرها، وابن رجب في الجامع والفتح والقواعد..

وغالب هذه الآثار تدل على ملكة مذهلة، ووعي بليغ، تعجز جامعاتنا الحالية عن صناعته.

والسؤال هنا :

إذا كنا ننتقد المتون، وحفظهـا، فما هو البـديل لـدى ابن خلـدون، أو من نقــدها كأحمد أمين، والعلامة الأديب على الشــيخ الطنطــاوي وشبهها بالبرقيات...!!

نعم هي في بعضـها برقيـات ورسـائل محـددة، تعطي المرسل إليه مضمون الرسالة وفحوى الخطاب وزبدة العلم...

كـالحبيب يُرسل إلى محبوبـه، بالشـوق والـود والتلاقي ... فـإذا ما التقيا تحاضنا وتجالسا وعاشا جلسة وئام وانشراح...

وحافظ المتن إذا قـرأ المتن على شـيخ أو اسـتمع لمن يشـرحه، أو راجع الشروحات، تجاوز تلك البرقيات، إلى البحار العميقـات، وحـاز الجواهر الدفينات والله الموفق...

فلما تلاقينا وعاينتُ حسنها تيقنت أني إنما كنت ألعبُ

ومع انتقـاد الفيلسـوف ابن خلـدون رحمه الله للمختصـرات، انتقد أيضا كـثرة التأليفـات ويـرى أنها (**أضـرت بالنـاس في تحصـيل العلم، والوقوف على غاياته**).

وهذا مشكل ! فلا المختصرات صنعت الملكـة، ولا التأليفـات ولـدت الغايات !! إذن ما الحل ؟

الحل هو أن تُكتب العلــوم كتابة معتدلة متوســطة، تــراعي البلاغة والإفهام، وتحـوي الاسـتدلال والغايـات... وهـذا كما يريد الامـام ابن خلدون فيما يبدو رحمه الله...

وهـذا قد تعـذر في زمنه وهو في القـرن الثـامن الهجـري، والحركة التأليفية زاخرة، والمدارس منتشرة، واتصلت الأمة بـالأمم الأخـرى، وهبطت الهمم، وكـثر الجهـال والسـائلون، وقد قـالوا (العلم نقطة كثرها الجـاهلون) وتفـاوت النـاس في التصـنيف والتـدقيق!! فكيف والحـال كـذلك، أن تصـدر كتب ة. لا مختصـرة ولا مطولـة، تُصـقل صــقلاً متوســطاً .. وهــذا إن وجد ولكنه قليل في خضم مؤلفــات متسارعة، ومدارس مختلفة، وطلاب متفاوتون...!!

وماذا نقول نحن في عصر الكمـبيوتر والنت، وضـعف الهمم، وثـورة المعلومات واختلاف المناهج والطرائق..

هل ثمة بــديل لتلكم المتــون ، أو تعــاد صــياغتها، أو تجــدّد بطريقة عصرية أو تعتمد مذكرات الجامعة، أو الأجهزة الذكية الكفية ...؟!

أكثر الناقدين لم يقدم حلولاً !!

وإن كنا مع نقد الطرائق العلمية وتطويرها، واختيار المتون المناسبة لكل أهل بلد، وأما التعيير المطلق، والشتيمة الباهضــة، فليست من النقد العلمي، ولا الفكر الموضوعي.

والواجب حالياً، اعتماد هذه المتـون كمقـدمات ممهـدات، ثم تحـديثها عـبر الحواشي والشـروحات، ومحاولة مزجها بالأفكار الجديدة، والمسـائل المسـتحدثة، ريثما يفتح الله على الناقدين، بوسائل جديدة تستبدل بها تلك المتون...

وإن كــانت الطلائع من خلال وســائل الإعلام، والطــرق الخفيفــة، وحمى الحداثيين، تشير إلى ضد ذلك كله، وانتهاج نهج التثقيف العام للمسائل الشرعية، وطـرح علـوم الآلـة، والمفصل النقـدي المهـون للشعائر، والتعمق في العلـوم الحديثة والطبيعيـة، وأظن والله أعلم أن ذلك من أســباب الحملة على الــتراث وحفــاظ المتــون، والله المستعان.

ويعلم الله اننا لم نكن نحب الانجراف إلى أتون الـردود والتعقيبـات، ولكن الزلة شنيعة، والقنبلة فظيعة، تستلزم التراجع، والأوبة، وتفهم المنــاهج العلميــة، وتقــديم الاعتــذار الصــادق، والمخــالف يعي ذلك ويقدره... والله الموفق .

اللهم ألهمنا رشــدنا، وقنا شــرور أنفســنا ،وصــلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه